

التحرير والتنوير

أعرض فرعون عن خطاب موسى واستثار نفوس الملاء من حوله وهم مجلسه فاستفهمهم استفهام تعجب من حالهم كيف لم يستمعوا ما قاله موسى فنزلهم منزلة من لم يستمعه تهييجا لنفوسهم كي لا تتمكن منهم حجة موسى فسلط الاستفهام على نفي استماعهم كما تقدم . وهذا التعجب من حال استماعهم وسكوتهم يقتضي التعجب من كلام موسى بطريق فحوى الخطاب فهو كناية عن تعجب آخر . ومرجع التعجبين أن إثبات رب واحد لجميع المخلوقات منكر عند فرعون لأنه كان مشركا فيرى توحيد الإله لا يصح السكوت عليه ولكون خطاب فرعون لمن حوله يتضمن جوابا عن كلام موسى حكى كلام فرعون بالصيغة التي اعتيدت في القرآن حكاية المقاولات بها كما تقدم غير مرة كأنه يجيب موسى عن كلامه .

(قال ربكم ورب آبائكم الأولين [26]) .

حكايته كانت فلذلك حوله من سكوت من فرعون تعجب عن الجواب معرض في هذا موسى كلام A E قوله على الطريقة التي تحكى بها المقاولات . ولما كان في كلام فرعون إعراض عن مخاطبة موسى إذ تجاوزه إلى مخاطبة من حوله وجه موسى خطابه إلى جميعهم وإذ رأى موسى أنهم جميعا لم يهتدوا إلى الاقتناع بالاستدلال على خلق الله العوالم الذي ابتداء به هو أوسع دلالة على وجود الله تعالى واحد فنزل بهم إلى الاستدلال بأنفسهم وبآبائهم إذ أوجدتهم الله بعد العدم ثم أعدم آباءهم بعد وجودهم ؛ لان أحوال أنفسهم وآبائهم أقرب إليهم وأيسر استدلالا على خالقهم فالاستدلال الأول يمتاز بالعموم والاستدلال الثاني يمتاز بالقرب من الضرورة فإن كثيرا من العقلاء توهموا السماوات قديمة واجبة الوجود فإما آباؤهم فكثير من السامعين شهدوا انعدام كثير من آبائهم بالموت وكفى به دليلا على انتفاء القدم الدال على انتفاء الإلهية .

وشمل عموم الآباء بإضافته إلى الضمير وبوصفه بالأولين بعض من يزعمونهم في مرتبة الآلهة مثل الفراعنة القدماء الملقبين عندهم بأبناء الشمس والشمس معدودة في الآلهة ويمثلها الصنم (آمون رع) .

والرب : الخالق والسيد بموجب الخلقية .

(قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون [27]) .

احتد فرعون لما ذكر موسى ما يشمل آباءه المقدسين بذكر يخرجهم من صفعة الإلهية زاعما أن هذا يخالف العقل بالضرورة فلا يصدر إلا من مختل الإدراك وأنه رأى أن الاستدلال بخالقيتهم وخالقية آبائهم عبث لأن فرعون وملاه يرون تكوين الآدمي بالتولد وهم لا يحسبون التكوين

الدال على الخالقية إلا التكوين بالطفرة دون التدرج بناء على أن الأشياء المعتادة لا تتفطن إلى دقائقها العقول الساذجة فهم يحسون تكوين الفرخ من البيضة أقل من تكوين الرعد وأن تكوين دودة القز أدل على الخالق من تكوين الآدمي مه أنه ليس كذلك ؛ فلذلك زعم أن ادعاء دلالة تكوين الآباء والأبناء ودلالة فناء الآباء على ثبوت الإله الواحد رب الآباء والأبناء ضربا من الجنون إذ هو تكوين لم يشهدوا دقائقه والمعروف المألوف ولادة الأجنة وموت الأموات .

وأكد كلامه بحرفي التأكيد لأن حالة موسى لا تؤذن بجنونه فكان وصفه بالجنون معرضا للشك فلذلك أكد فرعون أنه مجنون يعني أنه علم من حال موسى ما عسى أن لا يعلمه السامعون . وقصد بإطلاق وصف الرسول على موسى التهكم به بقرينة رمية بالجنون المحقق عنده . وأضاف الرسول إلى المخاطبين ربنا بنفسه عن أن يكون مقصودا بالخطاب وأكد التهكم والريء بوصفه بالموصول (الذي أرسل إليكم) فإن مضمون الموصل وصلته هو مضمون (رسولكم) فكان ذكره كالتأكيد وتنصيما على المقصود لزيادة تهيج السامعين كيلا يتأثروا أو يتأثر بعضهم بصدق موسى لأن فرعون يتهيا لإعداد العدة لمقاومة موسى لعلمه بأن له قوما في مصر ربما يستنصر بهم .

(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون [28])